من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
البـــداية
تـــأليـف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر

الطبعة العشرون يناير 2008
إهـــداء
- إلى المثل والقدوة في عطائها للوطن من أجل تقدمه وازدهاره.
- إلى الأم التي تظلل بدعمها ورعايتها براعم الإبداع لتزهر وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.
إلى أمي صاحبة السمو الشيخة موزة بنت ناصر المسند حرم حضرة صاحب السمو أمير البلاد المفدى .. حفظه الله ورعاه.
أهـــدي هـــذا العمـــل

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]
المقـدمة
ترانيم الحق والعدل يشدو بها الصالحون. وصرخات البطش والقوة والطغيان لا يطلقها سوى الأشرار والحاقدين. ويظل الموت نهاية المطاف.. وصلب الحقيقة وجوهرها، ذلك الحائط النهائي الصلب والمصير الذي لا يقهر ولا يتغير لبني البشر ومعهم شتى أشكال الحياة لباقي المخلوقات. يعلو ضجيج الصراع بين المخلوقات وتزداد وتيرته حتى يتلاشى في النهاية ويتحول مع تلك النهاية إلى بداية.
سلسلة متصلة من حلقات لا تنتهي إلا وبداية جديدة ترتسم ملامحها من جديد ليعلو الضجيج وكما بدأ ينتهي. وحوار حياة متصل.. نعم متصل في سياقه العام .. ومتقطع في خصوصياته ودقائقه.. وبكل أحداثه وتفاعلاته يبدو في إطاره العام نظاما هائلا وفريدا في تعقيداته وروعته. ونظل نرنو نحن البشر بعيون ترى وعقول تحاول أن تصل لهدف ما أو غاية، وهي في نهاية الأمر تبحث عن شيء تحسه وتستشعره.. لكنها لا تفهمه. وتظل تحاول وتحاول حتى يضيع العمر هباء وعبثا؛ ليعود الأمر إلى حيث بدأ، والنتيجة واحدة والرقم يبدو صفرا لا قيمة له. فقط الإيمان.. نعم هو الإيمان بالله الخالق الأعظم.. تلك القوة المتفردة القاهرة والانصياع والاستسلام الكامل هو الملجأ والملاذ.. وإلا الضياع والوهم. إذن علينا أن نعترف دون مكابرة أو عناد أنه لا مجال للهروب تحت أي مسمى أو مبرر، وبذلك علينا الاعتراف المطلق بأننا نقع تحت وطأة الموت الذي يبعثر كل شيء أنجزناه في حدود مقدوراتنا ويجعله برحيلنا غير ذي قيمة مادية أو غير مادية سوى الخضوع والاستسلام، ومن ثَم الطاعة لهذا الخالق الأعظم المتفرد في وحدانيته والمهيمن بقدرته العظيمة المطلقة.
إننا في حقيقة الأمر مجردون من الحرية التي يدعيها الآخرون، والدليل على ذلك أننا لا نستطيع - وبكل بساطة - أن نغير ولسنا أحرارا في أن نغير حقيقة موضوعية نعيشها. وهل هناك أبسط من أننا لا نستطيع إنكار الأشياء التي تراها أعيننا وتلمسها أيدينا وتسمعها آذاننا؟! فإذا كنت تعيش فى مدينة لندن مثلا فهل لديك الحرية فى أن تقول إنني أعيش فى باريس أو مدريد؟ هل يمكن ذلك؟ إنها حقيقة لا يمكن أن تنكرها وقد فرضت علينا بموجب المكان والزمان. هكذا نحن البشر جميعا بأعراقنا وألواننا وأجناسنا ولغاتنا منذ أن شهدنا على أنفسنا وقلنا «بلى» حين قال الله تعالى: {أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} صدق الله العظيم (الأعراف:1728)

محمد عبد العزيز أحمد الباكر
البـــدايـــة
كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل حين خطوت إلى شارع كروميل، مغادرا البناية التي أقطنها في لندن، وكان الطقس مثاليا في هذا اليوم الذي صادف الأحد، وهو الأمر الذي سيوقف تماما ويعطل رغبتنا الأزلية في التسوق حيث عطلة الأسبوع وحيث لا مجال هناك يقضي فيه الإنسان وقته سوى حديقة الهايدبارك ببساطها الأخضر الشاسع وأشجارها الباسقة وبحيراتها، إلا أن ركن الخطباء أو كما يسمى بالإنجليزية «سبيكر كورنر» يظل المكان الأنسب لقضاء الوقت والتجول بين المتحدثين وأصحاب القضايا سياسية كانت أو دينية ... وحتى الموضوعات الطريفة كان لها خطباؤها.
وعادة ما أجد نفسي مشدودا إلى هذا المكان أو الملتقى الثقافي المفتوح في الهواء الطلق، كما أجد رغبة فضولية في نفسي للتحاور مع ذوي الأفكار المختلفة والثقافات المتنوعة.
أغرتني روعة الطقس بأن أقطع المسافة سيرا على الأقدام، وعبر «جلوستر رود» وصلت إلى «نايتس بريدج» ومنها إلى «الهايدبارك كورنر»، وشعرت بنشاط غامر لحظة وصولي حيث كان المكان غاصاً بالناس المتحلقين حول الخطباء والجالسين على المقاعد البيضاء المريحة والمتناثرة خلف السياج الحديدي الصغير الفاصل بين البساط الأخضر والمتحدثين.

ويتوقع المرء عادة وفي ذا المكان بالتحديد أن يلتقي بأصدقاء ومعارف من الوطن، إضافة إلى إمكانية الحصول على صداقات جديدة من مختلف الجنسيات والأعراق وهذا أمر يحدث في العادة رغم التحفظ الفطري والحذر في هذه الأمور. ورغم الدعابات التي يلقيها البعض من المتحلقين حول أحدهم هنا أو هناك كان هناك متحاورون جادون وذوو فكر يستحق الانتباه والتوقف والمشاركة.

وفي أثناء تجوالي بين الجموع شعرت بيد توضع على كتفي من الخلف فاستدرت مستطلعًا لأجد أحد الأصدقاء القدامى والذين يمتون بصلة قرابة لي ... وتصافحنا. وبعد المقدمة الخليجية التلقائية بالسؤال عن الصحة والأخبار والأهل، ظللنا معا نتابع التجول مازحين تارة ومهتمين تارة أخرى حتى جذب انتباهنا أحد الخطباء كان حوله عدد غير قليل من المتابعين المتحلقين، وكان يقف معتليًا مقعدًا خشبيًّا ليشاهده أكبر عدد من الناس. وعموما هي عادة معظم المتحدثين حيث يعتلي بعضهم مقعدا والبعض والآخر يعتلي درجا معدنيا مزدوجا حتى يكون مرتفعا بشكل أكبر.

وقفنا أنا وصديقي نتابع الرجل الذي كان يحاوره عدد من الناس، وكانت قضيته تتناول موضوع العلمانية وأخلاقها أو الأخلاق اللا دينية، معتمدا على البداية أو أصل الإنسان. ويبدو أن المتحدث قد أثار أو اعتمد على الداروينية أو نظرية داروين التي تعبث بعقول البشر من خلال طرحها القائل بأن أصل الإنسان يعود كنتيجة لعملية طويلة من التطور بدءًا من أبسط أشكال الحياة التي لا تميز بين الإنسان والحيوان ... وتنظر إليه باعتبار أن الكائن البشري لا يتميز سوى بحقائقه المادية الخارجية كالتواصل بواسطة لغة مفهومة ومنطوقة، وصناعته للأشياء وسيره قائما أي باعتباره ابنًا للطبيعة. وهؤلاء الملحدون الذين لا يؤمنون بأي دين من الأديان يقولون أيضا إن الإنسان هو الحيوان الكامل وليس ثمة فرق بينه وبين الحيوان سوى في درجته وليس نوعه، أو كما يقول «جون واتسون»: إنه ليس ثمة فاصل يفرق بين الإنسان والبهيمة. كان الحوار محتدما بين بعض الواقفين والمتحدث الرئيس أو المحاور الواقف فوق مقعده.

وسأله أحد الناس قائلا: ألا يوجد في نظرك جوهر إنساني متميز؟ فأجاب الرجل قائلا ببساطة: لا يوجد. وهنا طرح السائل سؤالاً آخر قائلا: إذن.. من هو الإنسان؟ فأجابه قائلاً ... الإنسان ما هو إلا نظام كغيره من النظم في الطبيعة، وهذا النظام يخضع لنفس قوانين الطبيعة الحتمية، وتطوره مرتبط بحقيقة خارجية هي العمل، وأن الإنسان ما هو إلا نتاج بيئته وعمله. كان الرجل يؤكد نظرية داروين؛ مؤكدا أن كل شيء عبارة عن تطور طبيعي بدءا من الأشكال البدائية للحياة، باعتبارها عملية طبيعية كيميائية ولا وجود لشيء اسمه الحياة والضمير والروح، أي انعدام وجود جوهر إنساني. كان الرجل يقف عند حدود العلم باعتباره الحاكم في كل الجوانب في حياة البشر، وباعتباره - أي العلم - يرسم صورة علمية دقيقة للعالم. فوجدت نفسي مندفعا للحوار وسألته: إذا كان ما تقوله صحيحا فماذا تعني لك الدراما الإغريقية.. وجحيم دانتي .. واستهلال فاوست في السماء .. والأقنعة الميلانيزية .. والرسوم الجصية اليابانية القديمة .. والأغاني الدينية الإفريقية .. وأيضا الرسوم الحديثة؟

وبخبث أعاد لي الكرة قائلا في صيغة تساؤل:وماذا تعني لك أنت؟ فضحك بعض الحاضرين واتجهت أنظارهم إلى المكان الذي أقف فيه.. فقلت له: اسمح لي يا سيدي أن أوضح لك الأمر حيث إن كل هذه الأشياء التي سألتك عن معناها إذا أخذناها بشكل عشوائي فإنها سوف تدحض الداروينية، ورؤيتك العلمية لشيء أبعد من حدود العلم. إنها تحمل وتنطلق صارخة لتشهد أنه لا علاقة لها بإنسان داروين الذي تدعي، ولا يمكن أبدا لأي من ذوي الفكر والعقل أن يدعي أنها من نتاج الطبيعة حولنا.. فأي نوع من المشاعر التي تنطوي عليها لوحات مايكل أنجلو الجصية التي تمثل تاريخ الإنسان منذ هبوطه إلى الأرض حتيوم القيامة؟ وماذا تعني التعبيرات المأساوية، وأي مآسٍ يمكن أن تكون في حياة تتألف من مجرد تبادل بين كائن حي وبين الطبيعة؟ ولمَ يوجد خوف بين كل شيء حي مادام الإنسان والحياة هما ثمرة الطبيعة الأم كما تدعي؟ كان الجميع صامتين وكان الرجل يحاول جمع شتات عقله وفكره ليرد.

ولم أعطه الفرصة فاستطردت قائلا: إن كل هذه الأسئلة تجعلنا نتشكك في الصورة التي رسمها العلم إن كانت كاملة وحقيقية لأنها تفتقر إلى بعد جوهري للواقع، حيث إن العلم بمنطقه التحليلي المجرد يجعل الحياة خالية من الحياة، كما يجعل الإنسان خاليًا من الإنسانية، ودعني أقول بصيغة أخرى إنه إذا كان الإنسان كما تقول نتاجا لهذا العالم الذي نعيشه أو جزءا منه فمن الممكن هنا أن تكون ثمة علاقة بين العلم والإنسان، وبعكس ذلك، فإن الفن ممكن فقط إذا كان الإنسان غريبا ومختلفا عن الطبيعة وإذا كان متميز الهوية حيث إن كل الفنون الإنسانية تحكي بشكل أو بآخر قصة طويلة لغربة الإنسان في الطبيعة. كان صديقي لا يجيد الإنجليزية، الأمر الذي دفعه للتململ فأشار على بأن نذهب في الوقت الذي صفق فيه بعض الحاضرين وحين أوشكت على مغادرة المكان قال الرجل: يا صاح.. لا تنسحب هكذا وأنا أتحداك في مناظرة علنية نختار مكانها وزمانها معا. فتوقفت وعلى الفور قلت له وأنا مندهش: هل أنت جاد في عرضك؟ فقال: نعم وعلى الفور دونت له رقم هاتفي الجوال واسمي الأول وقلت له وأنا أتقدم لأعطيه الورقة المدون عليها الرقم والاسم: سأكون سعيدا بذلك.

وانطلقت أنا وصديقي الذي أخذ يعلق على الموضوع وهو يضحك قائلا: (أنت غاوي وجع رأس وهؤلاء لا يقتنعون إلا بما في رءوسهم...) فقلت له: لا عليك وسأعالج الموضوع بطريقتي. لكنني كنت بالفعل أشعر بسعادة خفية مشوبة ببعض التوتر وهذا أمر طبيعي خاصة إذا كنت أجهل مَن هذا الرجل وكيفية ومكان هذه المناظرة. تنقلت مع صديقي بين العديد من المتحاورين ثم بعدها جلسنا لنأخذ قسطا من الراحة على مقعدين مواجهين للبحيرة نتبادل الأحاديث المختلفة، وكانت الساعة تقترب من الثالثة حين انصرفنا معا مستقلين إحدي سيارات التاكسي التي أقلتنا إلى شارع كرومويل، حيث كان يقيم صديقي أيضا في العمارة الحمراء التي تجاور مستشفي كرومويل والتي لم تكن تبعد عن منزلي كثيرا.

كنت أشعر ببعض الإرهاق البدني فضلت أخذ قسط من الراحة في الفراش على تناول طعام الغداء، ورحت في نوم عميق... وفي السابعة تقريبا كنت أدلف إلى الحمام لاستمتع بسبوح بارد شعرت بعده بنشاط وتناولت طعام الغداء ولم يبق سوى أن أقرر إما الخروج مرة أخرى

وإما الجلوس في المنزل لمشاهدة التليفزيون أو القراءة، ووجدت أن من الأنسب ألا أغادر المنزل قبل العاشرة مساء وهو وقت ليس متأخرا في لندن على أي حال خاصة في أيام الصيف. وهناك بجوار النافذة المطلة على شارع كروموبل بغرفة الاستقبال الكبيرة جلست بعد أن التقطت كتابا قيما للمفكر الإسلامي الكبير على عزت بيجوفيتش عنوانه «الإسلام بين الشرق والغرب»، وغرقت بين صفحات الكتاب ولم أشعر أن الوقت كان يمضي سريعا إلا حين نبهني الخادم الهندي إلى أن الساعة بلغت التاسعة والنصف.. كان ينبهني إلى أنني تناولت الكثير من أقداح القهوة السوداء التي أحبها.. وللحقيقة كنت أشعر ببعض الإرهاق وهو أمر طبيعي خاصة بعد القراءة.

كان الرذاذ يتساقط خفيفا وأنا أسير باتجاه محطة «جلوستر» وكان الطقس يتميز بلفحة هواء بارد تلفح وجهي مع قطرات الرذاذ المتساقط، وما هي إلا دقائق كنت بعدها أقف تحت مظلة الرصيف أنتظر القطار المتجه إلى «كوينزواي»، وفي محطة «بيزووتر» غادرت القطار وتوجهت سيرا إلى المقهى الذي يحلو لي تزجية وقت فراغي فيه مع بعض المعارف والأصدقاء العرب من ذوي الفكر أو الإعلاميين والفنانين ورجال الأعمال الذين يلتقون على هذا المقهى العربي بشكل شبه يومي كل ليلة، وعادة تكون الجلسات ممتعة في هذا المقهى خاصة على الطاولات المنتشرة أمام مدخله في مواجهة الشارع، وبين المرح والأحاديث الجادة كان الوقت ينقضي. وهناك على مسافة قليلة لا تتجاوز الخمسين مترا كان يقبع البناء الضخم ذو القبة «وايت ليز» وهو عبارة عن سوق تجاري يضم بعض المحلات الشهيرة «كماركس آند سبنسر» ومحلات المجوهرات والأزياء النسائية، وفي الطوابق العلوية الأخرى كان يضم قاعة سينما والعديد من المقاهي والمطاعم المختلفة الثقافات في وجباتها الإيطالية والعربية.

ورغم هذه البانوراما وحركة الناس في الشارع قمنا لمشاهدة هذا الرجل الأيرلندي المضحك الذي يرتدي قبعة الكاوبوي، وفي يده دائما علبة بيرة أو زجاجة خمر والذي يسكن خارج مدخل أحد أبواب البنايات الملاصقة للمقهى، وهم يسمون مثل هذا الرجل هناك بالهوملس، أي المتشرد الذي لايسكن بيتا وليس له أسرة ويتسول ثمن ما يحتاجه عادة وكان يدعى شارلي، وعادة ما كان يثير المشاكل عبر مشاجراته المعتادة مع الآخرين من أمثاله إلا أنه كان يثير فينا عادة الضحك وكان مثار تسلية بخفة ظله وكلامه وحركاته.

رغم كل ذلك كان الحوار الذي جرى صباح اليوم في (الهايدبارك) يسيطر على عقلي الباطن وأنا أتناول قدحا من الشاي بالنعناع أحضرته لي بولندية حسناء في مقتبل صباها وهي تبتسم في عذوبة، وكان العديد من الزبائن يدلفون إلى المقهى الذي أجلس على إحدى طاولاته ويخرج بعضهم بعد قضاء حاجته .. وكان بالمقهى بعض من يأخذ طلبه من الساندويتشات ويخرج، وبالمناسبة فالمقهى يقدم المأكولات الشرقية وبعض الأكلات الشعبية الشهية لبعض البلاد العربية كالفول، إضافة إلى المشروبات أيضا كالشاي بالنعناع. كنت أتابع هذه المناظر المتوالية أمامي منشغلاً في داخلي بقضية الحوار والقصور الفكري المعيب الذي يعتري العلمانيين وفكرهم المادي القائم والمبني على حيوانية أصل الإنسان والذي وصل إلى مرحلته الحالية في عملية تطوير بيولوجي أو عملية اختيار طبيعي كما قال داروين. وكنت مندهشا جدا، ولم يكن مثـار دهشـتي إلا حـول المدى الحضاري التقني الذي وصل إليه الإنسان ونحن في الشهور الأخيرة قبل بدء الألفية الثالثة ومدي التخلف العقلي الذي يجعل من الإنسان عبدا لنظرية وضعها أحد البشر تقول إن الإنسان نتاج الطبيعة. وعلى الفور أصل إلى نتيجة منطقية هائلة الوضوح والروعة وهي أن الإسلام يبقي بالفعل وفي كل مراحل الزمن فوق مستوي العلماء وعلومهم أو نظرياتهم ويثبت دائما أننا نمتلك كنزا لا حدود لقيمته العالية الرفيعة من الهدى والنور.

وفجأة وأنا مستغرق في تأملاتي فوجئت برنين هاتفي الجوال وكان المتحدث يسألني عن اسمي وبعد إجابتي أغلق الخط، وما هي إلا ثوان معدودة وشعرت بيد توضع على كتفي من الخلف وأنا جالس على مقعدي أمام المقهى... واستدرت لأجد أحد الأشخاص جاء من داخل المقهى .

وكانت المفاجأة أنه الرجل الذي كنت أحاوره في «الهايدبارك» صباح اليوم وكان مبتسمًا. شرح الرجل كيف حدثت المصادفة حين دلف إلى المقهى هو وزوجته وكيف رآني حين دخوله لكنه كان يريد التأكد من شخصي عن طريق الهاتف الجوال الذي حصل مني على رقمه، ومن ثم دعاني لأنضم إلى طاولته بالداخل. وهناك كانت زوجته السيدة «هيلين» تجلس في مواجهة الداخل إلى المقهى على الناحية اليسرى فتصافحنا بعد أن قدمني السيد «دونالد» إليها، وبعد المجاملات التي تغلف بدايات التعارف المعتادة بدأ دونالد يحدثني عن نفسه وعن دراساته في مجال العلوم الطبيعية وعن قناعاته الفكرية، وبصفته كاتبا ومفكرا فإنه يحضر الندوات العلمية والفكرية التي تقام في جامعة «أوكسفورد» ولندن وبعض الجامعات الأخرى التي يسافر إليها كجامعة «ويلز» و«أدنبرة» و«بلفاست»، وكان الرجل يتجاوز في عمره الخمسين عاما.

وكانت زوجته السيدة «هيلين» تماثله تقريبا في العمر، وهي تعمل مديرة لإحدي المدارس البريطانية في إحدى ضواحي لندن القريبة من مسكنهما الواقع في منطقة أكتون. بعد هذا التعارف وتقديمي لنفسي شعرت أن السيد «دونالد» وزوجته السيدة «هيلين» أخذتهما الدهشة خاصة حين عرفا أنني مواطن خليجي يعمل في مجال التجارة والمقاولات، وعاجلته بالسؤال ما الذي يدهشك ..؟ فأجابني دونالد قائلا: لقد كنت أظن أنك تعمل في مجال علمي أو ثقافي وهذا ما يدهشني.

فقلت له وأنا أبتسم: إن عملي لا يمنعني من القراءة وارتياد مجالات الفكر، وأنا بطبيعتي ميال للقراءة خاصة في مجال الأدب وهو الذي بدأت به منذ الصبا. فنظرت «هيلين» إلى زوجها مبتسمة ثم سألتني: أتقصد آدابكم العربية؟ فأجبتها قائلا: ليس آدابنا فقط، بل تجولت بين روائع الأعمال الأدبية لكبار أدباء الشرق والغرب على السواء. كان الرجل ينظر إليَّ متأملا .. ثم سألني في محاولة للتأكد من ذلك: ومن أعجبك من أدباء الغرب والشرق؟ أجبته وأنا أبتسم في ثقة: إن لكل أديب ميزته وخصائصه وجمالياته الفنية، ولعلك توافقني الرأي على أن أديبا فرنسيا كـ»ألكسندر ديماس» الأب لا يختلف في روعته في عمله الأدبي الكبير «الفرسان الثلاثة» عن «ألكسـندر ديمـــاس» الابـن في «غـــادة الكاميليا» مثـلاً، قس عـلي ذلك أعـمـــالا رائعة «لفيكتور هوجو» و«أميل زولا» و «أوسـكار وايلد» و«البرتو مورافيا» في

إيطاليا، و«ديستويفسكي» و«بوشكين» و«تولستوي» و«ماكسيم جوركي» في روسيا، ولعلني لم أنس «تشارلز ديكنز» في إنجلترا.. أليس كذلك؟ بسرعة أجاب الرجل: بكل تأكيد. بكل تأكيد. ثم أردف قائلا: إننا سعداء بالتعرف إلى شخصية عربية من دول الخليج، وهزت «هيلين» رأسها موافقة زوجها على مشاعره. فقلت لهما: إنني أيضا أشعر بالسعادة لذلك، لكنني أود أن أناقشك في موضوعك الذي طرحته صباح اليوم في ركن خطابة الحديقة.

فعاجلني دونالد قائلا: سيكون ذلك ولكن ليس الآن.. دعنا نشرب نخب تعارفنا ورفع قدحه، ورفعت زوجته قدحها، وشعرت بأنه عليَّ أن أتصرف، فتناولت كوبا ممتلئا بالماء ورفعته بطريقتهم المعروفة. فقال دونالد: أنا أتفهم ذلك وابتسمنا جميعا. وبعد تبادل أحاديث مختلفة حول الثقافات وضرورة الالتقاء مجددا مالت «هيلين» على زوجها بحديث هامس هز بعده رأسه ثم قالت «هيلين» موجهة حديثها نحوي: أرجو أن تقبل دعوتنا على العشاء في منزلنا بضاحية أكتون مساء السبت المقبل إن لم يكن لديك مانع. فقلت لها: بكل امتنان.. سأعمل على تلبية دعوتكم الكريمة وسوف أحادثكم هاتفيا قبلها. فقال دونالد وهو يخرج بطاقته ويقدمها لي: هاك أرقام الهواتف وعنوان المنزل وسنكون على اتصال. فقلت له: بكل تأكيد. انصرف «دونالد» وزوجته «هيلين» بعد أن ودعتهما عند مدخل المقهى. كان بعض الأصدقاء العرب قد وصلوا إلى المقهى خاصة ذلك الشاب المصري الدمث «عاطف النونو» الذي أنهى دراسته في سويسرا في مجال إدارة الأعمال والمهتم كثيرا بالموضوعات الاقتصادية وانعكاسات تطبيق اتفاقية الجات على الجانب العربي، خاصة أن والده من كبار رجال الأعمال بمدينة الإسكندرية، و«السيد خليفة»، ورفيقه الدائم «صالح» من أبناء الخليج الذين يدرسون في بريطانيا، وأحد الإخوان السعوديين أيضا الدارسين هناك والذين كانوا يأتون فقط في أيام إجازات نهاية الأسبوع بالإضافة إلى غيرهم من الأصدقاء اليمنيين والليبيين والمغاربة العاملين ببريطانيا. وانضم إلينا فيما بعد أحد رواد المقهى الدائمين الذين عادة ما يأتون في وقت متأخر كالفنان التشكيلي العربي «حسين الشرقاوي» الذي يعد أحد عناوين الفن العربي في بريطانيا. وبين الأحاديث الجانبية والمشتركة بين رواد المقهى من الأصدقاء وغيرهم من الأوروبيين وجنسيات أخرى تشارك في الجلسة - انقضت ليلة من ليالي لندن التي نقضيها ونشعر خلالها بمشاعر دافئة تجمع بعضنا البعض. وفي الثانية والنصف بدأنا الانصراف كل إلى وجهته، وفي احدى سيارات التاكسي وفي طريقي إلى المنزل بشارع «كروموبل» أخذت أسترجع شريط أحداث اليوم. ورغم هذه السهرة الطويلة إلا أنني كنت أشعر بعدم رغبتي في النوم، وحين دلفت إلى داخل شقتي كان خادمي الهندي يجلس على مقعد في الردهة يقاوم النوم في صلابة دفعت بالاحمرار إلى عينيه، وحين شعرت بذلك طلبت منه أن ينام فلست في حاجة لشيء وسأتدبر أمري إذا احتجت شيئا. دخلت إلى غرفتي وبدلت ملابسي .. وأدرت جهاز التلفاز الذي كان يعرض في معظم قنواته أفلاما إما أنها لا تشدني .. وإما أنها تتعرض لما يدعونه مأساة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية فأطفأته وتناولت كتابا أخذت أتصفحه حتي شعرت بالنعاس يتسلل إلى جفوني فأطفأت نور الغرفة وغرقت في نوم هانئ وعميق.

انقضت أيام إقامتي في لندن بعد ذلك كالمعتاد بين رياضة السير حرا وهي فرصة قلما تسنح لي في الوطن - وتكون عادة إلى حديقة «الهايدبارك» أو إلى شارع «كوينز واي»، مرورًا بشارع «كنسنجتون هاي رويت» التجاري الذي يضم العديد من المحلات والمقاهي التي يحلو لِي أحيانًا تناول القهوة السوداء وبعض العجائن الإيطالية أو الكيك اللذيذ فيها والتي يزداد استمتاعي بها خلال الأيام الباردة الممطرة... وساعات نزول المطر استغلها في الدعاء لي خاصة وللمسلمين عامة، ولكني لا أستطيع الاستمتاع برياضة السير في الحديقة التي تقع بدايتها في نهاية شارع كينسنجتون أو السير في شارع «كروموبل» عبر «جلوستر رود» وصولا إلى «تايتس بريدج» حيث محلات «هارودذ» الشهيرة ومن ثم تناول الفطور في الطابق الرابع في «هارودذ» خاصة في التراس ذي السقف البلاستيكي الشفاف والمتحرك الذي يغطي المكان خلال أوقات المطر بطريقة أوتوماتيكية والذي نري من خلاله السماء وكأنه لا يوجد سقف فوق رأسك، ثم أنتقل أيضا سيرا إلى «الهايدبارك» القريبة أيضا من الطرف الآخر خاصة «الهايدبارك كورنر» أو ركن الخطابة كما أسلفت. وأحيانا أتجول داخل المكتبات العربية التي يوجد فيها من الكتب الأدبية والسياسية الكثير من الممنوع والمسموح في بلاد العرب... وأحيانا أخرى أستقل المترو إلى «أكسفورد ستريت» للتبضع خاصة من الملبوسات، وفي نهاية الشارع حيث يبدأ «توتنهام كورتي رود» توجد الإلكترونيات بأحدث منتجاتها.

وفي الحقيقة فإنني أشعر أحيانا بملل لا يطاق في لندن اللهم إلا إذا كان في مقدورك الذهاب خارج لندن حيث مناطق الاستجمام الرائعة كمنطقة «ليك دستريكت» بمرتفعاتها الخضراء وبحيراتها الساحرة وطقسها الجميل... كل ذلك إضافة للقراءة ومشاهدة التلفاز.. وبالطبع إذا كان الأصدقاء هناك، والمكان الوحيد الذي أرتاح إليه ليلا ذلك المقهى العربي، فهو الذي أستمتع فيه بالسهر والترويح مع أولئك الأصدقاء من العرب هناك. وربما يتساءل أحدهم أين زيارة المتاحف من ذلك الوقت وربما لا يعلمون أنني قد زرت تلك المتاحف خاصة متحف التاريخ الطبيعي القريب جدا إلى منزلي مرات عديدة إضافة إلى المتاحف الأثرية كمتحف «مدام توسو» و«البرت» و«فيكتوريا» وغيرها. ولم يعد لدي ذلك الشغف بالتجول في «ليستر سكوير بالبيكاديللي» إلا إذا كان هناك أفلام تعرض للمرة الأولي فإنني لا أنسي ذلك خاصة في دار سينما «الإمباير» في «البيكاديللي». ولن أنسي أبدا مشاعري في ذلك اليوم الذي كنت أشاهد فيه العرض الأول لفيلم «تروليز» الذي كان في مجمله افتراءات وأكاذيب وتشويه للعرب في عيون الغرب.. واضطررت من شدة الاستياء والضغط النفسي أن أغادر السينما قبل انتهاء نصفه الأول كاحتجاج صامت ... وأنا أشعر بالغضب لهذا التشويه المتعمد لأمة عريقة ساهمت بنصيب بالغ الأهمية في صنع الحضارة الإنسانية وأضافت الكثير والكثير إلى التراث الإنساني العالمي عبر مساهماتها الإنسانية والعلمية والروحية.

وظللت أتسأل هل نسيت أوروبا أم تناست تأثير شروحات ابن رشد وكتبه، وابن طفيل وغيرهما في نهضتها وتجاوزها فترة الانحطاط الرهيبة خلال العصور الوسطي..؟ لقد نسوا دور علماء المسلمين في تطور العلوم على اختلافها وتنوعها كابن سينا في الطب وابن أحمد في

الرياضة وابن الهيثم والفراهيدي والفارابي وغيرهم الكثير في الفلك والبصريات وغيرها من العلوم التي تعد الأصول والأساسيات التي نبتت عليها علوم الحاضر واختراعاته التكنولوجية.. لكن هذا موضوع آخر.

المهم انقضت الأيام وجاء السبت وفي الساعة الثالثة والنصف بتوقيت لندن اتصل بي السيد دونالد ثم زوجته ليؤكدا الدعوة وضرورة الحضور لمنزلهما ولم ينسيا أن يصفا لي طريقة الوصول بعدما أكدا عليَّ عنوان المنزل في «تويفورد ستريت»، وكانت العاشرة والنصف هي موعد اللقاء.

كنت أشعر ببعض الانفعال والتوتر حين أعلم أنه سيكون حوار وحديث وربما يكون هناك ضيوف آخرون وهذا شبه مؤكد في مثل تلك الحالات. أمضيت الساعات الباقية بين المطالعة والاسترخاء وتناول طعام الغداء وقررت أن أذهب إلى منزل «دونالد وهيلين» بالقطار حسبما أشارا عليَّ بذلك، فالمسافة تكون أقصر إضافة للوقت حيث إن المسافة بالتاكسي أو «الميني كاب» تعتبر طويلة قياسًا إلى القطار..

وفي التاسعة كنت أرتدي معطفي وأغادر المنزل متوجها إلى محطة قطارات إيرل سكورت والتي لا تبعد سوى مسافة قصيرة عن منزلي، وللحقيقة فإنني كنت دائم التوجس والحذر خلال السير ليلاً خاصة في منطقة إيرل سكورت نظرًا للوجود الكثير من الشباب الهيبز ذوي الشعور الطويلة أو ذوي الرءوس الحليقة المتواجدين هناك، إضافة إلى العديد من الهوملس وبعض الأماكن المشبوهة أو لبعض الأفعال التي كثيرا ما سمعنا أنها تحدث في إيرل سكورت ليلا، لكن كان الوقت مبكرًا وقررت أن تكون عودتي بواسطة السيارة التاكسي الأجرة أو الميني كاب ليلاً وهما آمنين تمامًا.

ورغم حالة الأمان النسبية التي تتمتع بها لندن بالنسبة لباقي مدن أوربا إلا أن البطالة وانتشار المخدرات بين الشباب، وهي أمور أدت وتؤدي إلى حوادث متعددة ومخيفة جعلت الإنجليز يتوجعون من هذه الحوادث، ولهم قول حول هذا الأمر يجعلهم متشائمين فيقولون: إن لندن في طريقها لأن تصبح نيويورك، في إشارة إلى السمعة التي تتمتع بها نيويورك ومدن أخرى في مجال الجريمة ونسبة الخطر في شوارع هذه المدن. وللحقيقة فإن لندن في رأيي الشخصي تظل بالنسبة إلى نيويورك غاية في الأمان .. اللهم إلا إذا وضع الإنسان نفسه في نطاق الخطر من خلال أماكن مشبوهة ومعروفة للجميع ومن خلال أوقات الليل المتأخرة وعليه فلا يلومن أحد إلا نفسه.

وفي محطة القطار كانت هناك طوابير طويلة أمام نوافذ موظفي حجز بطاقات القطار، وإن هي إلا حوالي عشرين دقيقة حصلت بعدها على بطاقة توجهت بعدها إلى الرصيف وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل حين كنت أغادر محطة إيلين كومون متوجهًا حسب الوصف الذي وصفه لي السيد دونالد سيرا على قدمي يمينًا حتي محطة لتموين السيارات وفي مقابلها تمامًا يقع شارع تويفورد حيث يوجد المنزل.

كانت المسافة لا تزيد على خمسمائة متر، آثرت أن أقطعها بالمشي الهادئ حتى لا أصل قبل الموعد أو بعده فقد كنت أشعر بحساسية عالية تجاه المواعيد من ناحية الدقة في الالتزام بها خاصة مع الإنجليز الذين يضعون عادة خطوطًا حمراء تحت الموعد والالتزام به. وبالفعل وصلت إلى محطة البترول وتجولت بالسوبر ماركت الموجود بها لأضيع الدقائق التالية، وفي العاشرة والنصف تمامًا كنت أضغط زر جرس الباب الذي فتحته لي السيدة هيلين وخلفها كان يقف دونالد لاستقبالي.

وفي ردهة الاستقبال الصغيرة التي تحتوي على طاقم من المقاعد يتسع لحوالي سبعة أشخاص وجدت هناك ضيوفًا آخرين هما السيد ستيف ماكوري أستاذ التاريخ بجامعة لندن وزوجته السيدة مارجريت طبيبة الأطفال وقد عرفني بهما السيد دونالد وزوجته، وبعد تبادل الأحاديث الودية المعتادة التي تبدأ عقب لحظات التعارف بقليل دق جرس الباب الخارجي وإذا بضيفين آخرين هما السيد ريجينالد بيزنكيت وزوجته ديمي وهي ابنة السيد دونالد والسيدة هيلين وهما يعملان معا في التليفزيون البريطاني.

انهمكت مع باقي الضيوف في الحديث بينما انهمك السيد دونالد وزوجته في تقديم الشراب وخيرتني السيدة هيلين بين المشروبات الكحولية فاعتذرت لها وطلبت قدحًا من القهوة السوداء الخالية من الحليب والسكر فهذا مشروبي الساخن المفضل وإلا فعصائر الفاكهة، ولم يعلق دونالد وهيلين كثيرا على ذلك سوي ملاحظة عابرة أدلت بها ديمي ابنة دونالد حول أن بعض العرب أو بعض المسلمين يشربون الخمور، ولم أحاول أن أجادل في ذلك فهي حقيقة للأسف، وبدأ الحديث العام دورته المعتادة حول الثقافات ومفاهيم الحياة والتصادم الحضاري الذي ينشأ بين الأمم بسبب التباين الثقافي والروحي بين بعضها البعض، الأمر الذي يسبب الحروب و الصراعات الدامية.

وفي مفاجأة غير متوقعة استرقت بها ديمي سياق الحديث قالت في تساؤل: أليس الإسلام كدين هو المسئول عن ما حدث وما يحدث الآن من حوادث في بقاع مختلفة من العالم طالت أوربا وأمريكا؟ فتكهرب المكان .. وسيطر الانفعال المكبوت على مناخ الجلسة؛ وشعرت ربما للحظة ومن خلال الالتفاف المفاجئ من الحضور للسيدة ديمي أنهم لم يكونوا يريدون توجيه سؤال مباشر ومباغت كهذا لرجل عربي مسلم يجلس معهم.. ولكني كنت أتوقع السؤال وما هو أكثر منه في هذه الجلسة .. فابتسمت ابتسامة الواثق في دينه وقلت لها: ربما ما تقولينه صحيح من الناحية الشكلية، إلا أنني أتساءل أيضًا عما يحدث في أيرلندا ومنذ بداية القرن وما يحدث في أمريكا وفي إسرائيل، أليس ذلك إرهابًا وتطرفًا؟ فسارع البروفيسور ستيف قائلاً: بلي، هذا صحيح والتطرف منتشر تقريبًا في كل الأديان وبين كافة الشعوب. واستأذنت من ستيف معتذرًا عن مقاطعته ووجهت حديثي إلى ديمي مرة أخرى قائلا: يجب ألا ننسي أن للتطرف أسبابه الإنسانية والسياسية والاجتماعية وهو ظاهرة تاريخية تظهر في فترات وتنتهي حسب المناخ الملائم لظهورها أو اختفائها، وحتى أكون أكثر تحديدا ودقة فإن الإسلام كدين لا علاقة له بالإرهاب ويحرمه ولا يقره أبدا ... أما الإرهاب الحقيقي فهو الإرهاب الذي تمارسه الدول القوية والمتقدمة على الشعوب الأخرى، فأنتم مثلا لا تسمون قتل الإسرائيليين للعرب إرهابًا وهم - أي الإسرائيليون - يحتلون وطنهم ويمارسون ضدهم أبشع أنواع القهر والإرهاب. ثم إن الغرب - وبريطانيا بصفة خاصة - يمنح حق الإقامة والحماية لمن وصفتهم دولهم بالإرهاب .. أليس هذا صحيحا يا ديمي؟

تدخل السيد دونالد مؤكدا كلامي ومبديًا بعض التبريرات والتعليلات وأشار إلى دعم الدول الغربية لديكتاتوريات كانت تسوم شعوبها وتذيقها أنواع القهر والسجن والقتل، وأعطي مثالاً على ديكتاتور تشيلي السابق أو «أوجستو بينوشيه» الذي يحتجزونه الآن بدعوى حقوق الإنسان في لندن وهو يعاني أخبث أنواع المرض. ودارت بين الجميع أحاديث مختلفة حول الإرهاب ودوافعه وأسبابه إلا أن دونالد تكلم بصوت عال مقاطعًا الجميع ليعلن أن استضافتي الليلة هي في الحقيقة نتاج حوار قصير في حديقة الهايدبارك بينه وبيني، ونريد ألا نخرج عن موضوع ذلك الحوار الذي يدور موضوعه حول نشأة الإنسان وطبيعته، بمعنى هل هو ابن الطبيعة وتطور معها حسبما تقول نظرية داروين، أم هو مخلوق من قِبل الخالق؟ ثم قال تحديدًا: أنتم جميعا تعرفون أنني أتبني هذه الفكرة التي تقول بنشوء الإنسان في الطبيعة وارتقائه معها ونريد أن نحاور ذلك الضيف العربي المسلم حول هذه الأمور استكمالاً لما بدأناه هناك في ركن الخطابة بحديقة الهايدبارك.

انتبه الجميع على إثر تلك المقدمة منصتين لما سوف أقوله فبدأت قائلا: أشكركم أولاً على استضافتي الليلة. وفي الحقيقة أنا من المولعين بتواصل الثقافات عبر تلمسي المتناقضات بينها من خلال الحوار الإنساني المفيد خاصة وأنه في ظل تقارب المسافات الزمنية الذي أحدثته ثورة الاتصالات الرهيبة خلال النصف الثاني من هذا القرن تحول العالم إلى مدينة صغيرة، الأمر الذي أظهر بوضوح التناقضات والتباينات الثقافية بين الشعوب والأمم ودفع بإمكانية التصادم الخطير إلى واجهة الاحتمالات القائمة بموجب هذا التقارب والتداخل. وعليه فإنني مقتنع بأن ما يصلح لي من إيجابيات في ثقافة شعب آخر يلزمني ويفيدني، وما لا يتسق مع ثقافتي ويتصادم مع أساسياتها فإنني أرفضه.. ربما يقبله آخرون من شعوب أخرى يتفق مع منهجها الثقافي وخطوطها الروحية والتاريخية، وبالطبع هذا لا يلزمني ولا أستسيغه. ابتسم البروفيسور ستيف وقال: ربما كنا في حاجة إلى إحدى القاعات في الجامعات هذه الليلة. فنظر إليه ريجينالد مؤكدًا حديثه.

فقلت مُبديًا ملاحظة حول استعدادهم لمنحي الفرصة: وأرجو أن تغفروا لي إن أطلت قليلاً. فأبدوا جميعا رضاهم وموافقتهم. فقلت: إذن دعوني أدخل في موضوعنا الذي أثاره صديقي رونالد. واستطردت: لقد أعطت الداروينية بعدًا أو شكلاً علميًّا حادًّا حين تناولت الإنسان من هذا الجانب الذي يلغي الجوهر الإنساني القائم على الحياة والضمير والروح عبر وصف عملية الاختيار الطبيعي حتى أصبح إنسانًا يستطيع الكلام وصناعة الأشياء ويسير منتصبًا ثم يستكمل الصورة عبر علم البيولوجي فيرجع كل شيء إلى الأشكال البدائية للحياة والتي هي بدورها عملية طبيعية كيميائية.. ثم تساءلت، أليس كذلك يا سيد دونالد؟ فهز رأسه قائلاً: تمامًا.. تمامًا وبكل دقة هذا هو مفهومي تحديداً.

فقلت مستطردًا: إذن فإنني سوف أتجرد تماماً من هويتي الروحية المتمثلة في عقيدتي أو أي عقيدة أخرى وسوف أتساءل: إذا نحينا هذا الأمر لنتأمل لوحات مايكل أنجلو في كنائس روما والتي تستعرض تاريخ الإنسان منذ هبوطه إلى الأرض وحتى يوم القيامة فسوف نحار في معانيها وسنتساءل عما إذا كانت هذه اللوحات تمثل حقيقة موضوعها العظيم الذي تصوره؟ وإذا كان ما تمثله في معناها حقيقة فأي حقيقة تلك؟ وإذا ما تعرضنا إلى جحيم دانتي في رؤياه أو الدراما الإغريقية أو الأقنعة الميلانيزية أو صور الكهوف اليابانية القديمة أو قصة فاوست في السماء.. إذا تصورنا كل هذه الأشياء ذات الدلالات العميقة والنقوش التي أبدعتها أيدي البشر، وبشكل عشوائي وتلقائي .. ألا تحمل في معانيها ومضامينها شهادة خاصة عن تلك الحقيقة التي تدحض نظرية داروين والتي يستحيل أن نرجعها إلى قوي الطبيعة أو أنها من إنتاجها؟!

ودعني أتساءل... أي نوع من المشاعر التي تنطوي عليها ديانة الخلاص؟ وما معنى هذا التعبير المأساوي؟ وأي مشاعر مأساوية يمكن أن تكون في حياة تتألف من مجرد تبادل بين كائن حي والطبيعة؟ وماذا رأي «إرنست نايز فستني» بعين امرأة عندما صور جحيم دانتي؟ ولِمَ يوجد الخوف بين كل شيء حي مادام الإنسان والحياة هما ثمرة ونتاج الطبيعة الأم؟ كان الجميع منصتين تمامًا وكأن على رءوسهم الطير، وحين وصلت إلى نهاية الاستعراض السابق سألني السيد دونالد قائلا: إنك تنكر دور العلم الذي يعطينا صورة ذات ملامح دقيقة للعالم، أليس كذلك؟ أجبته على الفور: أنا لا أنكر دور العلم .. يعطينا صورة دقيقة للعالم لكنها تفتقر إلى بعد جوهري للواقع، حيث يتميز العلم بفهم طبيعي خاطئ لكل ما هو حي وكل ما هو إنساني، حيث إنه بمنطقه التحليلي المجرد يجرد الحياة نفسها من الحياة، ويجرد الإنسان من إنسانيته، وأنا أقول إن العلم في علاقته بالإنسان ممكن فقط إذا كان الإنسان حقًّا وفعلاً جزءًا من العالم أو نتاجًا له، وبمعنى آخر أن يكون شيئًا من الأشياء وعلى العكس من ذلك فالفن ممكن فقط إذا كان الإنسان مختلفًا عن الطبيعة وغريبًا فيها وذا هوية متميزة؛ فجميع الفنون تحكي قصة متواصلة لغربة الإنسان في الطبيعة. وتوجهت بسؤال إلى الحضور قائلاً: ألستم تقرون ذلك معي؟

فقال ستيف: إنه منطق قوي بالفعل وطرح منظم يقبله العقل بكل تأكيد وأمَّن على كلامه ريجينالد. وقاطع دونالد الحديث قائلاً: معنى حديثك أن العلم والفن يقفان على طرفي نقيض وبشكل تصادمي. قلت له: نعم هذا صحيح. فسألني قائلاً: وما دليلك على هذه الأطروحة التي تضع العلم والفن على طرفي نقيض وبشكل تصادمي؟ أجبته قائلاً... إن العلم يا صديقي يحصي الحقائق التي تؤدي بطريقة عنيدة و قسرية إلى الاستنتاج بتطور الإنسان التدريجي من حيوان إلى إنسان.. أما الفن فإنه يوضح لنا أن الإنسان أتي من عالم مجهول.. إنه (أي الفن) يصوره قادما من هذا العالم المجهول. وعلى ذلك فإن العلم يشير إلى داروين وتركيبته الشيطانية الجهنمية... أما الفن فيشير إلى مايكل أنجلو والحقيقة الرائعة الواضحة في معاني لوحات الكنيسة. ودعني أزيد هنا شيئًا مهمًّا وهو أن فكرة التطور التي يقول بها العلم حول الإنسان كانت دائمًا متصلة وعلى علاقة وثيقة بالإلحاد، وقد ظهرت أولى الأفكار عن أصل الأنواع وفنائها عند الشاعر الروماني «لوكريتوس» الذي كان معروفًا بأفكاره الإلحادية وما يعرف بمذهب اللذة.. ثم استطردت قائلاً وموجها حديثي لدونالد في صورة تساؤل: لعلك قرأت عن تيتوس كاروس لوكريتوس؟ فقال دونالد: نعم ... ولديَّ كتاب له قرأته منذ زمن بعيد وهو من إصدارات جامعة كامبريدج.

ثم استطرد متسائلا ... إن العلم يا صديقي يبقي هو الحقيقة في رأيي طبعا لأنه مدعوم بحقائق عديدة وهائلة يستحيل تنفيذها.. ألا تقر بذلك؟ فقلت له باسمًا... المشكلة هي أنكم أيها العلمانيين تعبدون حقائق العلم، وتجهلون أن الإنسان فقط دون سائر الكائنات هو الذي توجد عنه

حقيقتان متعارضتان، وأن امتزاجهما معا هو الذي يمكن أن يعطينا الصورة الكاملة وحقيقية الإنسان، وهاتان الحقيقتان المتعارضتان أو الفكرتان المختلفتان عن الإنسان لا يمكن لإحداهما أن تنتصر على الأخرى، لأنه إذا كانت حقيقية العلم في الأساس مدعمة بالأسانيد والحقائق التي يصعب تفنيدها فإن الفكرة أو الحقيقية الأخرى مستقرة وراسخة في قلوب جميع البشر . قال البروفيسور ستيف وهو يعتدل في جلسته بشكل بدا وكأنه يستعد لخوض غمار النقاش الذي ظل يستمع له أو يتدخل فيه بتعليقات بسيطة: أنا أريد أن أقول هنا - إذا أذنتم لي بالمقاطعة - إن القول بأن اعتبار الإنسان كائنا بيولوجيا فيه طبيعة حيوانية جاء عن طريق الدين قبل داروين وقبل «دي لامارك» حيث يذهب الدين إلى أن الحيوانية جانب من جوانب الإنسان ولكن الفرق يكمن في مدي شمولية هذا الجانب، وبمعنى آخر فإنه طبقاً للعلم فإن الإنسان ليس سوي أو ليس أكثر من حيوان ذكي وطبقاً للدين فإن الإنسان حيوان منح شخصية ذاتية. فقلت له: أنا أوافق على هذا الاستنتاج أو ذلك التعريف أو التوصيف لكن لنتذكر أن كلمة إنسان تحمل في عقولنا مدلولاً مزدوجًا، مثلاً نحن نقول «إننا أناس» بمعنى أننا مذنبون وضعفاء ونقول أيضًا «لنكن أناسًا» للتذكير بأننا كائنات أعلى وأن علينا التزامات أيضًا أعلى وأن واجبنا أن نتجنب الأنانية والدناءة.. وبالطبع أنتم مسيحيون فدعوني أذكركم مثلاً بقول المسيح عليه السلام وهو يعاتب القديس بطرس قائلاً: «إنك تفكر فقط في الإنسان«، وهو بهذا يعطي الأولوية لما هو إلهي. وعلى ذلك فمصطلحا: «مذهب إنساني» و»إنسانية» كلاهما مشتق من كلمة إنسان وينطويان على دلالة أخلاقية سامية، وهذا المعنى المزدوج للأفكار المتعلقة بالإنسان هو نتيجة الازدواج في الطبيعة الإنسانية، جاء أحد جانبيها من الأرض وجاء الآخر من السماء. قامت ديمي وسألت كل الجالسين عما يريد أن يتناوله من شراب مع طعام العشاء الذي أصبح جاهزًا بعد أن أعدته أمها في المطبخ، وكان عبارة عن شطائر من التونة والسالمون المدخن وبعض سلطات الخضراوات والفاكهة، وكانت الساعة قد دقت الثانية عشرة حين دعت هيلين الجميع لتناول العشاء والمشروبات. وفي أثناء تناول العشاء دار حديث بيني وبين السيدتين ديمي ومارجريت حول العرب والمسلمين ودورهم في بناء الحضارة الإنسانية عبر علمائهم، وأبدت ديمي رأيها الذي لا يخلو من عنصرية في هذا الأمر وهو أن الغرب بتحرره الفكري من أنماط الفكر الديني قد انطلق قدمًا وأعطي العالم حضارته الحالية القائمة على التكنولوجيا.

وقالت: إنني لا أستطيع أن أنكر ذلك وبهذا تسيدت الثقافة والفكر الغربي العالم وبالتالي لا دور لنا يذكر في هذا الأمر شأننا في هذا شأن أي أمة من أمم العالم الثالث. وللحقيقة لم أستطع ابتلاع ما في فمي إلا بصعوبة ...

وبعد لحظات مرت كالدهر قلت لها بعد أن تركت الطعام جانبًا: اسمعي يا ديمي ... لابد أن تعرفي أنه لا شيء يبني دون أساس، ونحن العرب والمسلمين كان لنا دور الأساس في بناء هذه الحضارة، وتعلمين أيضا أن الحضارة لم تكن لحظة إلهام تفجرت بعدها الاختراعات عشوائيا.. بل الحضارة العلمية الحالية التي تتسيدونها نتيجة تراكمات فكرية وعلمية أوصلت العقل البشري عبر هذا التسلسل الفكري والعلمي المتراكم إلى ما نحن فيه الآن. ولا تنسي يا ديمي أننا في بقعة من العالم أعطت الإنسانية عبر التاريخ أعظم الحضارات التي مازالت آثارها شاهدة عليها ولا ينكرها حتى الأعمى... أن أربعًا أو خمسًا من أقدم حضارات البشر عرفتها منطقتنا العربية .. تذكري أنه كانت في العراق الحضارة البابلية والآشورية والسومرية. وفي الشام كانت الفينيقية. وفي مصر كانت الفرعونية التي أذهلت ولازالت تذهل العالم حتى الآن بأسرارها وتاريخها الحافل وآثارها الخالدة. وفي اليمن كانت حضارة سبأ. إنني أقول لك دون مبالغة إننا شعوب عريقة في تراثها الفكري والحضاري لكنها سنة الله في كونه وهو الذي يبدل ولا يتبدل ... ودعيني أقول إن كل الحضارات عبر التاريخ - وأي متابع لحركة التاريخ - وأظن الدكتور ستيف يؤيدني في ذلك - يعرف أن الحضارات كلها سادت لأسباب ثم بادت وكانت كل حضارة تحمل بذور نهايتها فيها وإن اختلفت الأسباب.

ديمي ... إننا نحن المسلمين لدينا فهم يختلف عن فهمكم لهذا الكون.. إننا نعرف يقينا ونعلم أن لا شيء يبقي على حاله ولا دائم في هذا الكون إلا الخالق الأعظم، وفهمنا أمرا ربما لن تستوعبوه حق الاستيعاب؛ لأنه في رأيي الشخصي بدون فهم القواعد الإيمانية والأسس التي أوضحها الإسلام عبر القرآن العظيم وسنة الرسول الأكرم محمد (، وبدون ربط بين ما أتي به هذا الدين العظيم وتلك الظواهر التي تحدث أمامنا وحدثت عبر التاريخ لا يمكن فهم الأحداث والظواهر وحركة الوجود فهمًا صحيحًا. أعرف أنكِ لن تقتنعي بهذا الأمر وأنا أمنحك العذر لذلك لأنك لم تحاولي قراءة القرآن وفهم معانيه ... فقاطعتني ديمي قائلة: وماذا سيقول القرآن الذي تشير إليه حول هذا التقدم العظيم الذي تشهده البشرية الآن ؟ قلت لها: ستذهلين حين تعرفين أن ما تحدث عنه هذا الكتاب الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة ونيف يحدث الآن.. لقد أشار صراحة إلى ما أذهل العلماء في القرن العشرين.. سأقول لك مثالاً أو مثالين فقط.. في مجال الطب الحديث اكتشف العلماء مراحل تكوين الجنين وصفات تلك المراحل وهذا الأمر تم في قرننا العشرين بالطبع .. أليس كذلك؟ قالت: بلي. قلت لها: كل ما يتعلق بهذا الأمر وبنص صريح ورد في كتاب الله في الوقت الذي كانت الخرافات تعم العالم شرقه وغربه. ودعيني أورد مثلاً آخر: اكتشف علماء الجيولوجيا في العالم خلال هذا القرن أن الأرض والكرة الأرضية تغلفها قشرة سميكة، وهذه القشرة عبارة عن كتل متراصة بينها صدوع ككرة الجولف أو عبارة عن ألواح ضخمة.. أليس كذلك؟ قالت: بلي. قلت لها: لقد أورد القرآن كل ذلك وبنص صريح قاطع منذ ألف وأربعمائة سنة ... كانت ديمي والجميع ينصتون تمامًا. قلت لها أيضًا: دعيني أعطيك مثالاً آخر: أثبت العلماء في نهاية القرن العشرين أن الحديد في الأرض جاءها من الكواكب الأخرى في الفضاء.. أي بمعنى أنها أُمطرت بالحديد وبالتالي اكتشفناه كبشر واستخدمناه في كل شيء.. أليس كذلك؟ قالت: بلي. قلت لها: لو قرأت سورة الحديد في القرآن لسجدت لله سجودًا لا قيام بعده ... ولو استطردت في هذا الأمر فلن أتوقف ولكن الذاكرة لا تسعفني... لكن دعيني أذكر لك شيئًا آخر عن عظمة القرآن وعظمة هذا الدين الإسلامي العظيم من خلال تخيل حوار معك وسأضع أنا هذاالحوار، فمثلاً: من الممكن أن تسأليني سؤالاً تعجيزيًا بسيطًا جدًا ومحرجًا بحق كأن تقولين مثلاً هل ذكر القرآن طريقة صنع السيارات أو الطعام أو أي شيء نراه الآن بعيوننا وسوف أجيبك فقط: نعم. فقالت ديمي منزعجة ومقطبة الجبين: كيف؟ قلت لها سوف تقرأين

آية تقول: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} صدق الله العظيم (النحل : 43) إن القضية أكبر وأعقد مما تتخيلين وأبسط أيضًا مما تظنين، ودعيني أقول لك دون تحيز وبتجرد كامل إنني لو لم أكن مسلمًا وقرأت عن ذلك الدين برغبة في الفهم والعلم والمعرفة لاعتنقته على الفور؛ لأن الإسلام في حقيقته هو ضالة البشرية وغايتها وهو هديها ونور دربها لكنهم للأسف لا يعلمون ولا ينتبهون. أدارت ديمي وجهها للآخرين مستنجدة وكان دونالد صامتًا تمامًا يستمع ومعه باقي المجموعة ... فآثرت مارجريت أن تساعد صديقتها فقالت: ربما كان ما تقوله صحيحًا من وجهة نظركم، فكل صاحب دين يدافع عن دينه.. لكن ما أراه ونراه من اكتشافات وإنجازات حضارية ملموسة يجعلنا لا نقتنع بالغيبيات إلى حد كبير.

فقلت لها: نعم هذا صحيح ... وتلك مصيبة البشرية، لكن دعيني أقول لك شيئًا حول تلك الحضارة وإفرازاتها الإيجابية التي وفرت للإنسان الرفاهية وسبل الحياة السهلة. إن الحضارة الإنسانية الحالية هي في الحقيقة حضارة الوسائل، أي أنها حضارة أعطت خارج الإنسان وحوله وليس داخله، وهنا مكمن الفشل والخطر.. لقد اعتمدت الحضارة التي أسميها الحضارة المادية على الوسائل والاختراعات التي تمنح الإنسان الرفاهية والراحة الجسمانية ولكنها لم تعط روح الإنسان، لقد أراحت جسده ولكنها أتعبت روحه وأنهكتها ووضعت الإنسان في سعير لا ينتهي من الركض خلف ماديات تنتهي هي بسرعة.. إما عبر عمرها الافتراضي وإما عبر تسارع الحديث منها والذي يلغي ما سبقها.. إنها حضارة قائمة على ساحة واحدة.. حضارة عرجاء كتب عليها السقوط يومًا وهذا أمر لا شك فيه، وقد ذكر ذلك علماؤكم لأنهم يعرفون ما تنطوي عليه هذه الحضارة من فوضي فكرية وأخلاقية ستؤدي بها وبالبشرية طبعًا إلى الهاوية.. إن هذه الفوضى هي في الحقيقة الفيروس أو السرطان الذي ينتشر حتى يتمكن من جسدها وبالتالي سوف يدمرها. بادرني البروفيسور ستيف قائلاً: على رسلك يا سيدي إنك بذلك تنكر قيمة الحرية التي هي الضمان الأكيد لهذه الحضارة، فالحرية تعني استمرار الإبداع والتجديد، والحرية كانت الأساس لانطلاق هذه الحضارة.. ألا تؤمن معي بذلك؟

أجبته قائلاً: إنني أتفق معك تمامًا في شق واحد وهو أن هذه الحضارة التي قامت على الحرية سوف تموت على يديها ودعني أذكرك بما أورده المفكر السياسي الأمريكي فرانسيس فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر» والذي شرح فيه بشكل منطقي كيف ستنتهي هذه الحضارة. إن الحرية يا سيدي أمر نسبي ولا يمكن أبدًا ونحن عبيد لقوة عظيمة خلقتنا أن نطلق كلمة الحرية بمعناها المطلق. اندهش ستيف مستنكرًا كلامي وهو ينظر صوب الحضور على المائدة وقال: كيف يمكن أن يكون ذلك؟ هل تستطيع أن تثبت ما تقول؟

أجبته قائلاً: صديقي ستيف.. هل يمكن أن تذكر لي أين نحن الآن؟

فصمت هنيهة وقال وهو يفرد حاجبه مستنكراً: وما علاقة ذلك بسؤالي؟ قلت له: قل أين نحن الآن وسوف أجيبك على سؤالك؟ قال ستيف: نحن الآن ضيوف في منزل السيد دونالد وزوجته هيلين.

قلت له متسائلاً: هل أنت حر في أن تقول غير ذلك؟ قال: ماذا تعني بسؤالك؟ قلت له: هل يمكنك القول إننا نجلس الآن على مقهى في ليستر سكوير؟ أجابني قائلاً: بالطبع لا. قلت له: إذًا أنت لست حرًّا بمعنى الكلمة. صمت ستيف والباقون واستطردت أنا قائلا: هذه هي الحقيقة يا ستيف.. نحن لسنا أحراراً بالمعنى المطلق للكلمة ولكننا يجب أن نكون أحراراً بشكل نسبي يتفق ويتسق مع صلاح الحياة وخطوطها الخيرة.. إن الحرية - حسب المفهوم الغربي للاصطلاح - تشمل الفوضى بجانب الإبداع وذلك هو سر المشكلة وجوهرها، ثم ألا تتفق معي في أن الشق الهادم في الحرية وكما أطلق عليه الأثينيون القدامى «الثيموس» يمضي الآن قدماً في نخر جسد الحضارة وتهديدها بصورة خطيرة..؟ فقاطعني ريجينالد قائلاً: وما هذا الثيموس الذي ذكرته؟ قلت له: هذا ما ذكره فوكوياما في معرض أطروحته في كتاب «نهاية التاريخ وخاتم البشر» نقلاً عن أفلاطون الذي قال إن النفس البشرية تتكون من ثلاثة عناصر هي الشهوة ... والعقل... والثيموس. والشهوة هي الرغبات البشرية بشكلها العام، والعقل ينظم للإنسان كيفية الحصول على تلك الرغبات، أما الثيموس - وهو الجانب الخطير في النفس البشرية - فهو يعني الرغبة في نيل الاعتزاز والتقدير، أو بمعنى آخر الطموح الذي لا ينتهي، وبمعنى ثالث المنزلة والمكانة والتسيد، وهو أمر يدفع بالإنسان إلى أن يَهلك ويُهلك، والنظام الليبرالي السياسي أو مفهوم الليبرالية السياسية في الغرب ينطلق من هذا المضمون وحتى يكون الأمر أكثر وضوحًا فمن الأفضل أن تقرأ هذا الكتاب. قال ريجينالد: أشكر لك هذا الإيضاح. تناولت فنجان القهوة الذي وضعته أمامي السيدة هيلين ورشفت منه رشفة، فيما كان دونالد يقول: دعونا ننتقل لنكمل حديثنا في الاستقبال. ونهض الجميع وأنا معهم. وداعبني دونالد قائلاً وهو يضحك: لن نسمح لك بالذهاب حتى نستكمل حوارنا الذي بدأناه. وقالت السيدة مارجريت: إنها في الحقيقة ليلة رائعة، فأبديت لها امتناني، لكنها تساءلت ونحن نجلس على مقاعد الاستقبال المريحة: اسمح لي أن أسألك سؤالاً مباشرًا ليس بعيدًا عن الموضوع. فقلت لها: على الرحب والسعة. فقالت: إذا كان الأمر كذلك فلماذا تتهالكون على الغرب ونراكم منبهرين بهذه الحضارة؟ ابتسمت ابتسامة واسعة وقلت لها: إن انبهارنا بالحضارة الغربية دليل على أننا نقدر الإبداع الإنساني في كافة المجالات.. إلا أننا في الوقت نفسه نتمنى لو كانت تلك الحضارة قائمة على ساقين وليست ساقًا واحدة.. نعم إننا مبهورون لكن رؤيتنا لتلك الحضارة تختلف عن رؤيتكم لها، ونحن نري قصورها الإنساني الفاضح لأنها جردته من أثمن ما يملك في روحه وتركته في خواء روحي مخيف، وللحقيقة فلقد منحنا الإسلام رؤية شمولية ذات أبعاد متكاملة للحقيقة أو لتقل للحياة عموماً.. ولذلك فنحن نشعر بالحزن والألم في نفس اللحظة التي نحس فيها بالانبهار، ونحن ننطلق من مفهوم إيماني شامل لم تدركوه أنتم ولو أدركتموه لكان الأمر مغايراً تماماً، ونحن نؤمن بأن هذا أيضًا من قدر الله سبحانه وتعالي ومن سننه في خلقه. قال دونالد: دعني أعود بك إلى قضيتنا الأساسية، فأومأت له برأسي موافقًا إياه فقال: هل توافقني على أن التدريب على العمل جعل يد الإنسان ليست فقط عضوًا للعمل وإنما أصبحت اليد نتاج ذلك العمل؟ فقلت له: لم أفهم ما تعنيه. فقال: أعني أنه من خلال العمل اكتسبت اليد البشرية هذه الدرجة الرفيعة من الإتقان الذي استطاعت من خلاله إنتاج الأعمال الفنية القيمة التي أشرت إليها في بداية حوارنا لمايكل أنجلو،

ودعني أزيدك أكثر أيضًا لوحات رافاييلو وتماثيل ثور فالدن وموسيقي ياجانيني وغيرهم الكثير. قلت له: إن ما تحدثت عنه الآن يعبر عن استمرارية النمو البيولوچي فقط وليس النمو الروحي وهنا يقبع خلافي معك؛ ففن التصوير أو الرسم والنحت والفنون بشكلها العام أعمال روحية وليست ميكانيكية..

ثم هل يمكن أن نفكر أن رافاييلو أبدع تلك اللوحات بروحه وحسه الداخلي، وحين كتب بيتهوفن سيمفونياته بل أعظم أعماله الموسيقية ألم يكن أصمًّا حين كتبها؟ وهل النمو البيولوچي هو الذي أبدعها؟ وحتى صور الكهوف البدائية خلال عصور ما قبل التاريخ كانت كذلك. إننا نواجه بعدين مختلفين في الإنسان، فهذا ال ليس فقط مجرد وظائف بيولوچية مختلفة، ونفس الشيء بالنسبة لتلك الأعمال الفنية، فاللوحة مثلاً لا يمكن تحليلها من خلال كمية الألوان المستخدمة فيها، ولا القصيدة الشعرية نستطيع أن نحللها من خلال مكوناتها اللفظية فقط، وكذلك المسجد أو الكنيسة لا نستطيع أن نحللهما من خلال مكوناتهما من الأحجار وعدد الأعمدة وغيرها من مواد البناء فقط. فبالنسبة للقصيدة ممكن أن نحللها لغويًّا بشكل ممتاز، ورغم ذلك لا يمكن لك بهذا التحليل أن تقترب مجرد اقتراب من جوهرها.. إنها تحمل معنى وجوهرًا مغايرًا تمامًا لهذا التحليل اللغوي. إنها تحتوي على عدد قليل من كلمات قاموس اللغة التي كتبت بها، ولكنَّ هناك فرقًا شاسعًا بين القاموس والقصيدة؛ ولذلك قس الأمر بنفس الطريقة على اللوحة الفنية والتمثال والعمل الموسيقى، إن بها ما هو أثمن من مكونات كل منها المادية، وأنت تفهم ما أعني وعلى ذلك فيجب أيها الصديق أن تعلم أن علم كعلم الحفريات وعلم النفس وكل العلوم تصف الإنسان فقط من جانبه الخارجي الميكانيكي أو الآلي، وبالتالي فالإنسان مثله مثل اللوحة الفنية والبناء والقصيدة.. إنه أكثر وأبعد وأشمل من كمية المادة التي تكونه، والإنسان أيضًا أكثر من جميع ما تقوله عنه العلوم مجتمعة.

قال ستيف وهو يهز رأسه موجهًا حديثه لدونالد: إن مهمتك شاقة يا صديقي ويصعب أن تصل لما تريد. فعلقت قائلاً وأنا أنظر إلى ساعتي: لعلني لم أطل عليكم. فسارعت هيلين ودونالد قائلين: تتجاوز الساعة الآن الواحدة بدقائق قليلة وللحقيقة فإننا في غاية الاستمتاع بهذه الليلة. وقال ستايف وأيده ريجينالد: لا عليك إنها ليلتنا وسنقتلها سهرًا فالحوار ممتع ولا يشعرنا بالسأم.

فقال دونالد: دعنا لا نضيع موضوع حوارنا فالحقيقة العلمية تثبت أن أول إنسان أو الأب الأكبر لكل البشر كان نوعًا من أكثر أنواع الحيوان تقدمًا وتلك حقيقة لا تقبل الشك. فقلت له: حسنًا يا سيد دونالد إذا كنت تؤمن حقيقة بذلك فهل تؤمن بمنطق حوار يقبله العقل؟ فقال: بالطبع. فقلت له: دعنا نقارن معًا بين الإنسان البدائي وأكثر أنواع الحيوان تقدمًا، وحين نقوم بهذه المقارنة سنجد الآتي: أن هناك فارقًا جوهريًّا ملازمًا وهو النظر إلى قطيع الحيوانات وهي تبحث عن طعامها وتتصارع من أجل البقاء، ثم ننظر إلى هذا الإنسان البدائي لنجده خائفًا مشوشًا بمعتقداته ومحرماته الغريبة وغارقا في أسراره ورموزه الغامضة وهذا الفرق لا يمكن لنا أن نفسره على أنه مجرد اختلاف فقط في مراحل التطور، وأنا أوافقك على أن الإنسان قد تطور ولكن فقط في تاريخه البشري الخارجي، فالإنسان مخلوق ويعلم داخل نفسه ووعيه الداخلي أنه ليس فقط مختلفًا عن الحيوان ولكن أيضًا لأن معنى حياته لا يتحقق إلا بإنكار الحيوان الذي بداخله.

وإذا افترضنا كما نقول أن الإنسان هو ابن الطبيعة، فكيف سمح له أن يعارض الطبيعة ويعاديها؟ وإذا تخيلنا أيضًا تطور الذكاء الإنساني إلى أعلى درجة فإننا سوف نجد أن حاجاته ستزداد كمًّا ونوعًا ولن يتلاشى شيء منها ولكن فقط ستكون الطريقة لإشباع هذه الحاجات أكثر ذكاءً وأفضل تنظيمًا، وأما فكرة تضحية الإنسان بنفسه من أجل الآخرين أو رفضه لبعض رغباته أو تقليله من حدة ملذاته الجسدية فكل هذا لا يحدث من ناحية عقله. ودعني أشرح هذا الأمر بشيء من التفصيل: نحن نعرف أن المنفعة والكفاءة هما مبدأ وجود الحيوان، لكنه ليس بهذا الشكل بالنسبة للإنسان على الأقل بالنسبة لخاصيته الإنسانية المتميزة، فغرائز الحيوان أوضح مثال على مبدأ الكفاءة والمنفعة فللحيوان شعور دقيق بالوقت أفضل من شعور الإنسان، خذ مثلاً طيور الزرزور التي تتوقف عن، تناول الطعام قبل الغروب بساعة، وانظر إلى النحل وكيف ينظم عمله اليومي بدرجة هائلة من الدقة، حيث تفرز معظم الزهور رحيقها وفي مواعيد محددة دقيقة ولعدة ساعات يوميًّا يذهب خلالها النحل بدقة تامة لامتصاص هذا الرحيق، حيث يتخير الوقت المناسب كما يتخير أيضًا أفضل المواقع والأماكن ويستخدم علامات مختلفة ومميزة على الأرض لتحديد اتجاهه، كما يقدر موضع الشمس في السماء وحين تتلبد السماء بالغيوم يكيف النحل نفسه باستقطاب ضوء الشمس من خلال السحب، وبالتالي فإن هذه القدرات من هذا العالم تدعم الكائنات الحية وتمنحها القدرة على البقاء. وبعكس كل هذا نستطيع أن نلاحظ أن المبادئ الأخلاقية في كل المجتمعات المتحضرة والبدائية تضعف كفاءة الإنسان، فإن كان لدينا نوعان من أنواع الكائنات على درجة واحدة من الذكاء فإن النوع الذي لديه مبادئ أخلاقية سرعان ما ينقرض، وما يعوض الإنسان عن قصور قوته بسبب التزامه الخلقي- هو تفوقه في الذكاء بالإضافة إلى قدرات أخرى مشابهة ومماثلة. وعمومًا فإن أصل الذكاء حيواني وليس إنسانيًا. ودعني أعطيك أمثلة على ذكاء الحيوان: فإلى جانب ألوان السلوك التي تفسر بأنها تقليد أو ارتباط آلي للصور هناك ألوان أخرى كثيرة من السلوكيات لا نتردد في الاعتراف بأنها سلوك ذكي ويمكن أن نخصص مثلاً كل سلوك تبدو فيه فكرة صناعية سواء كان الحيوان قد صنع أداة بنفسه أو استخدم أداة صنعها الإنسان، فمثلاً يستخدم الشمبانزي عصا للوصول إلى الموز، والدب يستخدم حجراً ليصل إلى فريسته، وهناك إثباتات علمية كثيرة تظهر كيف أن النحل والإوز والقرود تستقبل وترسل معلومات مختلفة من خلال الحوار أو التمثيل الحركي، وقرأنا عن الملاحظات المهمة التي جمعها مسئولو حديقة حيوان نيويورك عن ذكاء الحيوانات وقدرتها على استخدام الأشياء القريبة منها والتي استنتجوا من خلالها أن جميع الحيوانات تحظي بقدر من الذكاء تختلف من حيوان لآخر. واللغة أيضًا تنتمي إلى الجانب الطبيعي الحيواني أكثر من انتمائها للجانب الروحي للإنسان حيث ستجد شكلا من الأشكال البدائية للغة عند الحيوان - أو ما نسميها اللغويات وهي بعكس الفنون - يمكن تحليلها علمياً وبواسطة أكثر المناهج الرياضية الرقيقة، وهذا الأمر يعطي اللغويات خصائص العلم؛ ولذلك فموضوع العلم ممكن فقط إذا كان شيئاً خارجياً. وهناك بالطبع تناظر بين الذكاء والطبيعة وبين الذكاء واللغة، فكما أن الذكاء والمادة يساعد أحدهما في خلق الآخر.. كذلك يفعل كل من

الذكاء واللغة حيث إن اللغة هي يد المخ ووسيلته. ويقول هنري برجسون: «إن وظيفة المخ تكمن في تحديد حياتنا الروحية في إطار ما هو نافع لنا من الناحية العملية«.

وبصورة عامة لا يوجد في الإنسان شيء ليس موجوداً في المستويات العليا من الحيوانات والفقاريات والحشرات، فهناك شعور وذكاء ووسيلة أو أكثر من وسائل الاتصال والرغبة في إشباع الحاجات والتكوين الاجتماعي وبعض أشكال الاقتصاد، وبذلك ومن خلال هذه الرؤية يكون الإنسان مشتركًا بشيء مع الحيوان، ودعوني أقرأ لكم آية تعبر عن ذلك خير تعبير من القرآن الكريم: { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم } ^ (الأنعام:38). حاولت هيلين ومارجريت استيضاح ذلك بدهشة

وقلت لهما: دعوني أكمل حتى لا يتشتت تفكيري، فصمتا وأكملت حديثي قائلاً: لكن ليس في عالم الحيوان أي شيء يشبه ولو بأدنى درجات بدائيته أشياء إنسانية كالدين أو المسرح الدرامي أو المحرمات أو الفن أو المحظورات الأخلاقية أو حتي السحر، وغير ذلك مما يشمل حياة الإنسان سواء فيما قبل التاريخ أو في العصر الحديث.

وبذلك فإن تطور الحيوان قد يبدو منطقيًّا متدرجًا ويسهل فهمه إذا قورن بتطور الإنسان البدائي الذي تسيطر عليه محرمات ومعتقدات غريبة، فالحيوان حين يذهب للصيد يسلك سلوكاً منطقيًّا عقلانياً جداً، حيث لا يدع أدني فرصة مواتية إلا واقتنصها، حيث لا مجال للمعتقدات أو ما يشابه ذلك، فالنحل يعامل أعضاء مجتمعه الذين لا فائدة منهم بقسوة بالغة، حيث يقذف بهم بكل بساطة خارج الخلية ويعطي مجتمع النحل أفضل صورة ومثل على دقة التنظيم في الحياة الاجتماعية والتي لا يوجد بها أي قيم مما نسميه نحن بالإنسانية، كحماية الضعيف والمعوق والحق في الحياة والتقدير والاهتمام وغيرها من قيم إنسانية لا يحملها سوي إنسان وليس حيوانا. وتعال يا سيد دونالد لأضيف إلى ما قلت شيئًا مهما وهو أنه بالنسبة للحيوان تبدو الأشياء على ما هي عليه، أما بالنسبة للإنسان فإن الأشياء لها عنده دلالات تكون أحيانًا أكثر أهمية في نظره من دلالاتها الواقعية.. فمن السهل أن نفهم منطق حيوان يقاتل من أجل البقاء فماذا عن الإنسان البدائي؟ كان البدائيون قبل ذهابهم للصيد مع عائلاتهم أحيانًا يخضعون أنفسهم لأنواع مختلفة من المحرمات كالصيام والصلوات ويمارسون رقصات خاصة أو تراعى علامات خاصة وأحلاما معينة وحين يقترب البدء أو يكون الصيد على وشك الحدوث تحدث سلسلة أخرى من الشعائر، حتى النساء في البيوت كن يخضعن لكثير من المحظورات إذا انتهكت فإن بعثة الصيد قد تفشل وتتعرض حياة رجالهن للمخاطر، ونحن جميعاً نعلم أن الناس في المجتمعات البدائية كانوا يمثلون الحيوانات التي يأملون في قتلها قبل شروعهم في الصيد، كما كانوا يعتقدون أن لهذا التمثيل تأثيراً حاسماً على نجاح عملية الصيد وهذا ما كان يسمي بسحر الصيد، وكان الشباب يُقبلون أعضاء في جماعة الصيد بعد إخضاعهم لطقوس معقدة، وسميت هذه الطقوس من قبل علمائنا - التي حددت بثلاث مراحل- طقوس التطهير وطقوس الترشيح وطقوس القبول. وهكذا بينما كان الإنسان يرسم أو يصلي كان الحيوان يشرع في مهمته بمنطق محكم حيث يفحص الأرض وينصت بعناية ثم يتابع فريسته من الخلف، وعلى هذا النحو كان الحيوان صائداً ممتازاً وكذلك كان الإنسان البدائي لكنه كان في نفس الوقت لا يمل الاختراعات، وصانع للعبادات والأساطير والمعتقدات الخرافية والرقصات والأوثان.. كان دائم التطلع إلى عالم آخر: عالم حقيقي أو متخيل وبالتالي فهذا ليس فرقًا في مراحل التطور كما تقولون أيها الداروينيين ولكنه فرق في الجوهر. تدخل السيد ريجينالد قائلاً: إنني أؤيدك يا سيدي في طروحاتك التفسيرية التي تنقض بها نظرية داروين وغيره حول الطبيعة الحيوانية للإنسان، وأذكر أنني قرأت كتابا لعالم فقلت مقاطعًا: وفي بلاد العرب قبل الإسلام كان يوجد ما يشبه ذلك، وملحمة «مها بهاراتا» هي أيضًا مهرجان ضخم لهذا البوتلاتش.. إننا بالفعل أمام عالم حياته اليومية أكبر همه بما فيها من مصالح ونفعية. فقاطعني ستيف أيضًا قائلاً: وأنا أعلم أن علم «الإثنولوچي» - أي علم الأعراق البشرية - يبحث عن تفسير للبوتلاتش عبر السحر والأساطير، حيث إن تحطيم السلع واللامبالاة بالأشياء المادية النفعية وتقديم المبادئ على الأشياء (ولو بالظاهر) أعمال تخص الإنسان فقط ولا يوجد منه أي مظهر أو دلالة في عالم الحيوان.. توقف ستيف حين كانت ديمي تصب له قدحاً من الشراب وأتحفتني هيلين بقدح من عصير الفواكه وشكرتها عليه، وقلت موجها حديثي لدونالد: إن نظريتكم التي تؤمنون بها (أي نظرية داروين) ربما كانت التفسير النهائي لأصل الإنسان لوقت من الزمن لكن جميع البشر لم يؤمن بمصداقيتها مثلها مثل أي نظرية أخرى، إلا أنها أصبحت الآن نظرية مهلهلة تحتاج إلى مراجعة.. إنها لم تستطع أن تبرر أو تعطي تفسيراً لظهور التدين في حياة البشر ولم تستطع - وأقول ولن تستطيع - أن تجيب عن أسئلة حول معنى ظاهرة في حياتنا الحديثة - فلماذا يصبح الناس نفسياًً قلقين أو غير قانعين عندما تتوافر لهم متع الحياة المادية والرفاهية أكثر من ذي قبل؟ ولماذا تزداد حالات الانتحار والاكتئاب والخلل العقلي فى ظل ارتفاع الدخل ومستوى التعليم؟ ولماذا تختل الموازين بين التقدم والإنسانية؟ إنني أعتقد أنه كما هدمت نظرية النسبية لاينشتاين نظرية نيوتن حول العالم الثابت والدائم، فإن المبدأ الفلسفي التشاؤمي وفشل الحضارة يحطم نظرية داروين حول الإنسان وخلقه، فنحن كبشر معذبون بسياط الخوف والشك، إننا كبشر خلقنا بإرادة خالق أعظم ودعوني أقرأ عليكم ما أتذكره من قرآن فى سورة اقرأ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {4} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }. وهناك الكثير والعديد من آيات القرآن الكريم التي تدحض أفكار داروين ونظريته. وما داروين - يا صديقي دونالد - سوي بشر مثلي ومثلك يخطئ ويصيب، وهناك قول لدينا نحن المسلمين يقول: «كل صاحب قول يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم» وهو الرسول الأكرم محمد بن عبد الله الذي بعث للبشرية جمعاء بالهدى ونور الحق، تلك الرسالة التي أجاب بها منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام عن كل نظرياتكم قديمها وحديثها. نظرت في ساعتي وكانت قد تجاوزت الثالثة والنصف فقلت معتذراً: ربما أطلت عليكم بهذه السهرة الرائعة.

فقال دونالد والجميع يبتسمون: إنني أشعر أيها الصديق العربي بأنني أتجدد من داخلي حيث أطحت بكل ثوابتي النفسية والعلمية، وأعترف الآن بشجاعة أنك أرويت ظمئي شخصيا وأمتعت الحضور بثقافتك الرفيعة وحوارك الممتع، فهززت رأسي مبتسمًا وقلت له: إذا كان لابد من

توجيه الشكر والامتنان فالأولي أن أقدمه أنا لك شخصياً على استعدادك الرائع للحوار وتقبلك لجوانبه وحيثياته بروح متفتحة ومتجاوبة، وأيضًا لأنك جمعتنا بتلك النخبة من الأصدقاء.

كانت ديمي وزوجها يتهامسان بجدية بينما كنتُ أستعد للنهوض، وكنت وباقي المجموعة نتبادل بطاقات وأرقام الهواتف والعناوين وحديث المجاملات حين قال ريجينالد معيدًا الحوار إلى حالته الجدية عبر سؤال مباغت قائلاً: اسمح لي بسؤال ربما يكون الأخير. قلت له: تفضل فقال: بعد حديثك الشيق والمقنع.. ما الحياة من وجهة نظرك أنت؟ صمت الجميع في تلك اللحظة وبعد هنيهة قلت له: سوف أجيبك إجابتين وليست واحدة.. إن الحياة من وجهة نظري كمسلم أنطلق خلالها من فهم شامل وبسيط للحياة، وكما استلهمناها من عقيدة صافية ورسالة للبشرية شاملة المعنى والهدف والمضمون.. إنها باختصار وبكلمة واحدة قبل شرح معناها «العبودية».. إنها معنى زمني لعبودية الله الواحد والخالق بالنسبة لكل فرد من البشر.. لقد خُلقنا لنعبد الله ونسبّح بحمده ضمن طبيعة بشرية منحنا إياها رب العالمين..

وبشكل آخر فإن تاريخ كل منا محدد بين ميلاده وموته، وهذه المرحلة الزمنية أو هذا التاريخ المحدد هو رسالة نحملها من قبل خالق أعظم قادر وواحد فرد لا شريك له، نعبده خلالها من خلال اللجوء إليه واللوذ به والرضا بقضائه وقدره ضمن طبيعتنا البشرية، وهذا هو الشيء الوحيد الذي نتلذذ خلاله كبشر بطعم الراحة والطمأنينة والسعادة، ولن يتسنى لكم فهم ما أقول إلا بدراسة هذا الدين وفهم أصوله ومقاصده، هذه هي الإجابة الأولى. أما الأخرى فستكون بلغة العلم التي لا ترضون إلا بها وتقبلونها حجة لا شك فيها. أجاب علماء البيولوچي والطب والطبيعة عن هذا السؤال الذي وجهه أحدهم عن ماهية الحياة فكانت كل الإجابات غير واضحة ومشوشة.. فمثلاً قال «بيير لابان«: «يظل السر كاملاً فنقص معلوماتنا يجعل كل تفسير للحياة أقل وضوحًا من معرفتنا الغريزية بها». وقال «جان روستاند»: «حتى الآن لا نعرف على وجه التحديد ماهية الحياة، ونحن لا نستطيع حتى أن نقدم تعريفًا كاملاً دقيقًا لظاهرة الحياة». إن حالة القدرة على تجنب التحلل السريع إلى حالة الاتساق الخام بالنسبة للكائن الحي تكتنفها الأسرار، والبشر منذ فجر التاريخ القديم كان لديهم اعتقاد بأن هناك قوة خفية خارقة للطبيعة وليست مادية «مقارنة بالروح» تعمل داخل هذا الكائن الحي، وفي هذا يقول «لويس دي بروجلي» و»نوبل لوريت» عالما الطبيعة الفرنسيان: «إننا لا نستطيع أن نفسر الحياة من خلال معرفتنا الراهنة لعلمي الكيمياء والطبيعة». أما عالم الأحياء السويسري «جاينو» فقد أكد أنه يوجد فرق جوهري بين العلاقات الكيميائية الطبيعية والحياة حيث قال: «على علماء الطبيعة أن يدركوا أننا نحن علماء الحياة قد اجتهدنا في تفسير الحياة بطرق طبيعية كيميائية ولكننا وُجهنا بشيء يستعصي على الفهم والتفسير - إنها الحياة التي أوجدت شكلا منظماً ليس مرة واحدة فحسب بل ملايين المرات خلال بلايين السنين.. إننا نواجه قدرة على البناء لا يمكن تفسيرها بواسطة علم الطبيعة ولا علم الكيمياء». وحول هذا الشك يعبر أحد علماء النفس الروس وهو العالم الشهير «إيفان بافلوف» قائلاً: «على مدى آلاف السنين والبشر مشغولون بالبحث في الأحداث النفسية وظواهر الحياة الروحية والروح الإنسانية.. ليس فقط من جانب علماء النفس أو المتخصصين المعنيين بهذه القضية، ولكن أيضًا من جانب جميع الفنون والآداب، وامتلأت آلاف الصفحات بأوصاف للعالم الداخلي للإنسان، ولكن حتى الآن لم يتكلل هذا المجهود بالنجاح فنحن لم نستطع أن نكتشف أي قانون هذا الذي ينظم حياة الإنسان النفسية».

خذ أيضا ما قاله العالم «اليكس كاريل«: «إن القدرة التلقائية للخلايا على خلق الأعضاء والسلوك الاجتماعي لبعض الحشرات من بين الحقائق الأساسية التي تعلمناها خلال الملاحظة ولا نجد لها تفسيراً في ضوء فهمنا الحالي». ويقول «كاريل» أيضاً في معرض شكه في مقدرة الإنسان على فهم الحياة بشكل كامل داخل الخلية: «إن الأساليب التي تستخدمها الأعضاء في بناء نفسها غريبة على العقل البشري حيث أكوام من المادة تنبثق من خلية واحدة مفردة كأن بيتًا بكاملة يبني من طوبة سحرية.. طوبة تقوم تلقائياً بتوليد وحدات أخر من الطوب وتنمو الأعضاء بطريقة تذكّرنا بما تفعله الجنيات في قصص الأطفال.. إن عقولنا تتوه تمامًا في العالم الداخلي للأعضاء«.

ويذهب كاريل إلى ما هو أبعد من ذلك حيث يقول: «إننا حتى عاجزون عن الوصول إلى الأسرار التى تكتنف تنظيم أجسامنا من حيث تغذيتها وطاقتها العصبية والروحية، وإن القوانين «الطبيعية والكيميائية» يمكن أن تطبق فقط على المادة الميتة، وجزئيًّا فقط على الإنسان.. ولذ ينبغي أن نحرر أنفسنا تمامًا من أوهام القرن التاسع عشر ومعتقدات «جاك لوب».. تلك النظريات «الطبيعية والكيميائية» الطفولية عن الكائنات البشرية والتي - لسوء الحظ - لا يزال كثير من علماء الطبيعة والأطباء يعتنقونها. تلك هي إجابتي عن سؤالك يا ريجينالد. ثم نهضت من مكاني شاكرًا له مرة أخرى وردد بعضهم بعض عبارات المجاملة الودية، وضرورة الالتقاء كلما سنحت الفرصة، بينما رجوت السيدة هيلين أن تطلب لي سيارة ميني كاب والتي حضرت بعد دقائق قليلة، ارتديت معطفي وصافحت الجميع متوجهاً نحو باب المنزل.

كان الطقس ببرودته منعشاً والسكون يغشي المكان وأنا أخترق الحديقة متوجها نحو السيارة المتوقفة أمام مدخل الحديقة، فألقيت بتحية الصباح على ذلك السائق الأسود الذي تطل الطيبة من عينيه اللامعتين، وهناك أمام مدخل منزلي ترجلت بعد أن أعطيت السائق أجره وذهب، ووقفت على درج المدخل المرتفع أتأمل أضواء المصابيح المنسكبة على الشارع المبلل بالرذاذ، مستمتعا بلسعة برودة منعشة أخذت تلفح وجهي.. الأمر الذي أشعرني بالجوع فاستدرت ودلفت إلى شقتي لأجد الخادم شمس مستلقياً على الأريكة بالردهة في انتظاري، ولكنه كان غارقًا في نومه، أيقظته برفق وأحضر لي شطائر البيض المقلي والمربي وعصير البرتقال، تناولتها وأنا غارق في تخيلاتي حول ما إذا كان أولئك البشر المعادون للإسلام يفهمون الحقيقة؟ وحمدت الله على أعظم نعمة من نعمه وهي الإسلام وتذكرت قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ} ^ (القصص:58)

الخـــاتمة

أخيراً أجد من الواجب والأمانة العلمية أن أقول إن وسائل المعرفة حولنا متعددة ومتنوعة، ومصادرها في متناول أيدينا جميعا، يبقي علينا فقط أن تتوافر لدينا الرغبة الصادقة والحقيقية في أن ننهل من معينها العذب الذي لا يمكن أن يتوقف عن عطائه مادام لنا نحن الرغبة في ذلك. إن إيماني العميق والمفعم بالفهم الصحيح لهذا الدين العظيم وهو الدين الإسلامي الحنيف وشريعته السمحاء يمنحني دائماً الرغبة في نقل مفهوم هذا الدين إلى باقي البشر الذين لا يعتنقونه أو يقفون موقف العداء له، والمثير في الأمر أنه ليس العداء في معناه المجرد بل إنه عداء مبني على جهل مطبق بإشكالية الفهم الصحيح عقليًّا ومنطقياً لهذا الدين العظيم. وأتوجه في نهاية المطاف بالتحية وخالص التقدير إلى مفكرينا الإسلاميين الكبار الذين كانوا ولايزالون المنهل العذب والنبع الصافي الرقراق والمعين المتواصل لنا على الفهم الصحيح الشامل لجوانب هذا الدين العظيم، وعلى رأسهم المفكر الكبير على عزت بيجوفيتش. إنني وأنا أختم هذا الكتاب أتوجه بالشكر للقراء الكرام ولكل من آزرني بتشجيعه ودعمه الفكري والمعنوي والأدبي. هذا والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

محمد عبد العزيز الباكر